خصائص السنن التاريخية في الرؤية الاسلامية

د/ توفيق الغلبزوري
كلية اصول الدين -جامعة القرويين-
تطوان - المغرب

السنن التاريخية والاجتماعية في القرآن الكريم، هي القوانين المطردة والثابتة التي تفسر الى حد كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية، وتعين على فهمها، لذلك يتحتم علينا أن نوليها اهتماما بالغا وعناية فائقة في صياغتنا للمشروع الحضاري الاسلامي، لوضع حد للجفاف الذي يصبغ تعاملنا مع التاريخ الاسلامي بصفة خاصة، والتاريخ الانساني على وجه العموم.

وقد تكون حاجة المسلمين اليوم لفهمها، وحسن التعامل معها، والتحكم فيها شديدة، حتى يستعيدوا فاعليتهم وقدرتهم على التغيير والبناء الحضاريين، فتنتفي العشوائية من حركتهم، والفوضى الفكرية من عقولهم، والانهزامية والاستسلامية من مواقفهم.

وذلك لن يكون -بطبيعة الحال- إلا بالقضاء على عوامل الخمود، والجمود والركود، التي عطلت العقول عن إدراك سنن الله وقوانينه في الكون والتاريخ، والتي أخرجت الأمة المسلمة من تدافع عالم المادة والشهادة والحركة الى حالة من السلب والتواكل والفرار، وشاعت فيها فلسفة الجبر التي انحرفت بعقيدة القضاء والقدر الى تعطيل قانون السببية تعطيلا كاملا.

لذلك كله أولى القرآن الكريم للمسألة التاريخية أهمية كبرى من خلال الدعوة الى استمداد العبرة واستخلاص القانون من قصص الأنبياء مع أممهم، وتأكيده على ضرورة الوعي التاريخي من خلال الروية الاستقرائية للتاريخ البشري : «قد خلت من قبلكم سنن، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»(1).

فما هي هذه السنن في مفهوم القرآن الكريم أو ماهي خصائصها العامة؟ وكيف تتحكم

في مسيرة التاريخ وحركته وتطوره؟

هذا ما سنحاول الاجابة عنه في هذه المقالة، وفي دراسات تالية لها بإذن الله تعالى.

1 - التعريف اللغوي للسنة التاريخية :

في هذا التعريف المقتضب، سأقتبس من التعريفات اللغوية ما أراه مناسبا لمقتضى الحال، أي مناسبا لمفهوم السنة بمعناها التاريخي لابمعناها الشرعي الاصطلاحي الذي قصده المحدثون والأصوليون والفقهاء.

يقول ابن منظور في «لسان العرب» السنة في الأصل سنة الطريق، وهو طريق سنة أوائل الناس فصار مسلكا لمن بعدهم...

وبنى القوم بيوتهم على سنن واحد أي على مثال واحد.

وجاءت الرياح سنائن، إذا جاءت على وجه واحد وطريقة واحدة لاتختلف(2). وفي تفسير المراغي : السنن واحدة سنة وهي الطريقة المعتبرة والسيرة المتبعة، من قولهم سن الماء: إذا ولى صبه، شبهت به السنة لتوالي أجزائها على نهج واحد(3).

هذه التعريفات اللغوية تدل بمجموعها على المعنى المقصود من السنة بمفهومها التاريخي وهو : الاطراد، والنهج الواحد الذي لايَخْتَلِف ولا يَتَخَلَّف.

2 - القرآن الكوني والقرآن التاريخي

لاأحد يستطيع أن ينكر أن القرآن الكريم، عرض لبعض الحقائق العلمية في المجال الكوني العام، بقدر ما يؤكد الإعجاز الرباني لهذا الكتاب الذي أحاط بماضي البشرية، وحاضرها ومستقبلها، وإن كان الإمام الشاطبي قد أنكر الإعجاز العلمي في «الموافقات» بدعوى أن الشريعة أمية ونحا منحاه بعض دعاة التفسير البياني للقرآن في العصر الحديث، فقد وجد من انتقده في هذا المسلك غير المرضي وهو الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» قائلا : إن القول بأن الشريعة أمية زعم لايسلم إنما الشريعة خضارية إنسانية وليست أمية.

ومع هذا يجب ألا ننتظر من القرآن أن يحدثنا عن تفاصيل الفيزياء أو الكمياء، أو التكنولوجيا، أو الرياضيات... فهذه ليست مهمة القرآن الأساسية، إذ أن دوره الأول والأخير هو أن ينقل البشرية جمعاء من الضلالة الى الهدى، ومن الظلمات الى النور.

ولكن مع هذا يوجد فرق جوهري بين المجال التاريخي وبقية المجالات الكونية، فالسنن التاريخية وقوانينها الثابتة، أمر مرتبط أشد الارتباط بوظيفة القرآن ككتاب هداية للعاملين، لذلك قدم لنا القرآن الكريم أصول (منهج) متكامل في التعامل مع التاريخ البشري.

3 - خصائص السنن التاريخية والاجتماعية :

أ - العلمية والموضوعية :

الكون تحكمه قوانين دقيقة، وليس هناك مجال للفوضى والعبث من حيث بناؤه العلمي، ولم يكن خلق السموات والأرض صدفة ولعبا، وسنن الله التاريخية في المجتمعات البشرية، امتداد طبيعي لسننه في الميادين الكونية، لأنها قوانين واحدة، وأسباب واحدة، ونواميس واحدة، تصدر عن إرادة واحدة.

فلأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري عن حقيقة منهجية، على درجة كبيرة من الخطورة : إن التاريخ البشري لايتحرك فوضى وعلى غير هدف، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء، سواء بسواء...

وإن الوقائع التاريخية لاتخلق بالصدفة وإنما خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصدفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك.. «القانون يحكم التاريخ. تلك هي المقولة التي لم يكن قد كشف عنها النقاب قبل نزول القرآن الكريم»(4).

القرآن الكريم نبه على وجود قوانين موضوعية تتحكم بمسار الحركة التاريخية، وقاوم النظرة التبسيطية، المسطحة، المفككة التي تنظر الى أحداث التاريخ كما لو كانت كومة متراكمة معزولة منفصلا بعضها عن بعض، لايربطها رابط، ولايجمعها

جامع من علل ومعلولات، أو أسباب ومسببات.

فقبل نزول الوحي الإلهي، كانت أحداث التاريخ تفسر بالصدفة والاتفاق، أو بالقضاء الغالب والقدر القاهر، فقاوم القرآن هذه النظرة العفوية في تفسير الأحداث التاريخية، وأسس للعقلية العلمية في فقه التاريخ، بتأكيده المستمر على أن الحدث التاريخي له سنن، وله قوانين، وأنه لكي تكون إنسانا فاعلا ومؤثرا لابد أن تكشف هذه السنن، وتحسن تسخيرها، وتعرف كيفية التعامل معها، بالتدخل لتوجيهها الوجهة السليمة، فتصل الى مرحلة مغالبة القدر بقدر أحب الى الله، أو تفر من قدر الله الى قدر الله كما قال الفاروق رضي الله عنه.

يقول ابن القيم رحمه الله : ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب الى الله(5). ذلك لأن الانسان عنده الحرية والإرادة وبواسطتهما ،عبر التدخل في تلك السنن والقوانين عند العلم بها، يستطيع أن يخطط ويضع أسسا لمستقبل أفضل للفرد والجماعة.

والقراءة القرآنية لأحداث التاريخ، ليست عملية استجواب واستنطاق لنص منعزل عن الوقائع، وإنما هي عملية حوار بين الحدث التاريخي الواقعي وبين القرآن الكريم، ومن خلال هذا الحوار بين الواقع البشري والوحي الإلهي نستلهم الحلول باستمرار، باعتبار ايات القرآن الكريم حصيلة السنن والقوانين لخلاصة التجربة الإنسانية الكبرى على الأرض.

إن القرآن الكريم بتأكيده المستمر على اطراد السنن التاريخية وعدم تخلفها وتبدلها، يكون قد جاء برؤية موضوعية وعلمية للتاريخ، بمعنى أن السنة التاريخية مطردة، ليست علاقة عشوائية، وليست رابطة بين العلل والمعلولات قائمة على الصدفة والاتفاق، وإنما هي علاقة ذات طابع موضوعي وعلمي، لأن إهم ما يميز القانون العلمي –الخاضع للإستقراء والملاحظة والتجربة– عن بقية المعادلات والفروض هو الاطراد والتتابع وعدم التخلف.

وهذا ما أكدت عليه الايات المتعددة في القرآن الكريم :

«فهل ينظرون إلا سنة الأولين، فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا»(6).

«ولن تجد لسنة الله تبديلا»(7).

«ولامبدل لكلمات الله..»(8).

«إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم»(9).

«وإن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا»(10).

«وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا»(11).

«وإن أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا»(12).

«وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون»(13).

إن هذه الايات القرآنية -وغيرها التي تند عن الحصر- تؤكد على طابع الاستمرارية والاطراد، أي طابع الموضوعية والعلمية للسنة التاريخية، وهو المنهج الذي استفاد منه ابن خلدون في وضع «مقدمتة» فقام بمحاولة لدراسة التاريخ وكشف سننه وقوانينه، وإدراك علل سقوط الأمم وقيام الحضارات، ثم انتقل هذا المنهج الفريد الذي أسسه الوحي الإلهي الى أوروبا عبر الأندلس وصقلية، فكان علم الاجتماع الخلدوني، المستمد من القرآن الكريم هو الشعلة التي فجرت النهضة في الغرب، فقامت مدارس مثالية ومادية مختلفة تجاول فهم التاريخ وسننه لتَتَلَقَّف هذا المنهج القرآني الذي ضيعه المسلمون، واكتشاف هذه السنن هو الذي مكن الغرب من التقدم والتحكم، وغفلة المسلمين عنها كان سبب الانحطاط والسقوط والتخلف والغشائية.

ب - الربانية :

الخاصية الثانية التي أكذت عليها النصوص القرآنية، ربانية السنة التاريخية أو القانون التاريخي، أي أن السنة التاريخية ربانية مرتبطة بالله سبحانه وتعالى، (سنة الله)، (كلمات الله) على اختلاف التعبير، بمعنى أن كل سنة أو قانون من قوانين

التاريخ هو تعبير عن إرادة الله وقدرته.

هذا التأكيد من القرآن الكريم على ربانية السنن التاريخية وعلى طابعها الغيبي، يستهدف شد الإنسان الى ربه حتى عندما يريد أن يستفيد من مختلف القوانين الموضوعية التي تتحكم في الساحات الكونية والتاريخية، فالسنة والقانون لاتعني الانعزال عن الله سبحانه وتعالى، لأن الله يمارس قدرته وإرادته من خلال هذه السنن، ولأن هذه السنن والقوانين -في نهاية المطاف- تعبير عن إرادة الله وحكمته وتدبيره في الكون.

هنا تبرز العلاقة بين البعد الإيماني والسنن التي تحكم عالم الشهادة، إن اكتشاف انتظام هذه القوانين وعملها يقوده الى الإيمان بالله لا الى الطغيان والاستغناء عنه سبحانه، فعندما يقرأ الإنسان صفحات الكون أو صفحات التاريخ لابد أن يقرأها باسم الله «اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم»(14).

إن التوكيد على مصدر القانون -الذي هو البارئ سبحانه وتعالى- هو الذي يعطيه قيمته الأساسية، وقيمته الكبرى، فهو وحده مناط الثقة في أنه المنهج المبرأ من الجهل والهوى والانحراف في التفسير، هذه الخصائص المصاحبة لكل عمل بشري، والتي نراها مجسمة في جميع المناهج التاريخية التي صاغها البشر، يقول الدكتور ألكسيس كاريل: «وفي الحق لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظات التي كسبها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا «إننا لانفهم الإنسان ككل... وواقع الأمر أن جهلنا مطبق»(15).

وقد يتوهم البعض أن هذا الطابع الغيبي الذي يلبسه القرآن الكريم للتاريخ وسننه، يبعد القرآن عن التفسير العلمي الموضوعي للتاريخ، ويجعله يتجه اتجاه التفسير الإلهي للتاريخ الذي مثلته مدرسة من مدارس الفكر اللاهوتي على يد عدد كبير من المفكرين المسيحيين اللاهوتيين، الذين فسروا التاريخ تفسيرا لاهوتيا، كما

توهم ذلك الكاتب الماركسي العربي طيب تيزيني عندما استنكر إيمان ابن خلدون بوجود خالق للنواميس والسنن.

يقول في معرض حديثه عن ابن خلدون في كتابه (من التراث الى الثورة) : «... بيد أنه (يقصد ابن خلدون) في الوقت الذي أكد فيه على أن الفلاسفة يجب أن يبحثوا الأشياء في أسبابها ومسبباتها، وبالتالي أن يتجنبوا الحديث حول عالم فوق المجتمع الانساني، فإنه (أي ابن خلدون) بقي مثاليا في نظرته للعالم ككل، فهذا الأخير (أي العالم) حسب ابن خلدون نتاج خلق إلهي خارق ومفارق»(16).

إن طيب تيزيني هنا يفكر من داخل العقلية الغربية، بل إن هذا التهجم على ابن خلدون ووصفه بالمثالية- لالشيئ إلا لأنه اعتقد اعتقادا جازما بأن السنن والنواميس من خلق الله- يرجع الى طبيعة العقلية الماركسية العربية التي فهمت الاسلام من منظور الحياة الغربية مجسدة في تاريخ الكنيسة التي اتسمت مواقفها بالإرهاب الدموي وتحريف الوحي الإلهي وإلغاء دور العقل واحتقار الإنسان.

وهذا ما لاحظه الدكتور محمد عابد الجابري، ففي معرض تهجمه على الماركسية النصية «الوثوقية» يقول في كتابه «من أجل روية تقدمية» : «إن إرادة الله تعني (سنة الله في الذين خلوا من قبل) أي وجود قانون ونظام أقرهما الله تجري وفقهما الأمور في هذه الدنيا..»

ثم يقول عن تيزيني : «وأنا هنا لا أوافق الأستاذ طيب تيزيني على دراسته للفكر العربي في العصر الوسيط، تلك الدراسة التي اعتقد فيها بصورة ميكانيكية تصنيف آراء المفكرين المسلمين (ومنهم ابن خلدون طبعا) الى مثالية ومادية»(17).

إنه لا يمكن أبدا الخلط -كما فعل تيزين- بين الرؤية الاسلامية للتاريخ، والتفسير الإلهي العربي الذي اتجه إليه (أغسطين) وغيره من المفكرين اللاهوتيين، فيقال : بأن اسباغ الطابع الغيبي على السنة التاريخية يحول المسألة الى مسألة غيبية وعقائدية، ويخرج التاريخ عن إطاره العلمي.

إن هناك فرقا أساسيا وجوهريا بين الاتجاه القرآني وطريقة القرآن في ربط التاريخ بعالم الغيب وبين ما يسمى بالتفسير الإلهي للتاريخ الذي تبناه اللاهوت المسيحي، وحاصل هذا الفرق هو أن الاتجاه اللاهوتي يتناول الحادثة نفسها، فيربطها بالله قاطعا صلتها وروابطها مع بقية الحوادث، فهو يطرح الصلة مع الله بديلا على العلاقات والارتباطات التي تزخر بها الساحة التاريخية، والتي تمثل السنن والقوانين الموضوعية لهذه الساحة، بينما القرآن الكريم لا يسبغ الطابع الغيبي على الحادثة بالذات، لاينتزع الحادثة التاريخية من سياقها ليربطها مباشرة بالسماء، لايطرح صلة الحادثة بالسماء كبديل عن العلاقات والأسباب والمسببات على الساحة التاريخية، بل إنه يربط السنة والقانون التاريخي بالله، يربط أوجه العلاقات والارتباطات بالله، فهو يقرر أولا ويؤمن بوجود روابط وعلاقات بين الحوادث التاريخية إلا أن هذه الروابط والعلاقات التي تشكل القانون التاريخي هي في الحقيقة تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية(18).

إذا أردنا أن نستعين بمثال لتوضيح الفرق بين هذين الاتجاهين من الظواهر الطبيعية، نستطيع أن نستخدم هذا المثال : قد يأتي إنسان فيفسر (ظاهرة المطر) التي هي ظاهرة طبيعية فيقول : بأن المطر نزل بإرادة الله فيجعل هذه الارادة بديلا عن الأسباب الطبيعية التي نجم عنها نزول المطر، فكأن المطر هنا حادثة لاعلاقة لها ولانسب هذا النوع من الكلام يتعارض مع التفسير العلمي لظاهر المطر لكن إذا جاء شخص فقال : بأن الظاهرة ظاهرة المطر لها أسبابها وعلاقاتها وأنها مرتبطة بالدورة الطبيعة للماء، الماء يتبخر فيتحول الى غاز، والغاز يتصاعد سحابا، والسحاب يتحول بالتدريج الى سائل نتيجة انخفاض الحرارة فينزل المطر، إلا أن هذا التسلسل السببي القانوني المتقن، وهذه العلاقات المتشابكة بين الظواهر الطبيعية هي تعبير عن حكمة الله سبحانه وتعالى وتدبيره وحسن رعايته فمثل هذا الكلام لايتعارض أبدا مع الطابع العلمي والتفسير الموضوعي لظاهرة المطر، لأننا ربطنا هنا السنة أو القانون بالله لا الحادثة بالذات(19).

هذا التسلسل السببي القانوني المتقن هو الذي بينته الكثير من الايات الكونية في القرآن الكريم، اقتصر هنا على عرض نموذجين منها كافيين للدلالة على المقصود :
«وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون»(20).

«الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون، وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين، فانظر الى اثار رحمة الله كيف يحي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير»(21).

القرآن الكريم -إذن- حينما يسبغ الطابع الرباني على السنة التاريخية لايريد أن يتجه اتجاه التفسير اللاهوتي للتاريخ، ولكنه يريد أن يؤكد أن هذه السنن والقوانين إنما هي تحقيق وتعبير عن فترة الله سبحانه وتعالى وإرادته، فهي كلماته وسننه وحكمته في الكون، لكي يبقى الانسان دائما مشدودا الى الله عز وجل، ولكي تبقى الصلة وثيقة بين العلم والإيمان، فهو في نفس الوقت الذي ينظر فيه الى هذه السنن نظرة علمية ومنطقية، ينظر أيضا إليها نظرة إيمانيه كما هو واضح من الايتين أعلاه.

جـ - الشمولية :

الخاصية الثالثة للسنة التاريخية، هي خاصية الشمولية التي تنبثق عن الربانية، إن الانسان حينما يفكر في وضع منهج للساحة التاريخية الواقعية من ذات نفسه، يجيء تفكيره- كما يقول سيد قطب رحمه الله- جزئيا، يصلح لزمان ولايصلح لآخر، ويصلح لمكان ولايصلح لآخر، ويصلح لحال ولايصلح لآخر، ويصلح لمستوى ولايصلح لآخر، فوق ذلك، أنه لايتناول الأمر الواحد من جميع زواياه وأطرافه، وجميع ملابساته وأطواره، وجميع مقوماته وأسبابه، لأن هذه كلها ممتدة في الزمان والمكان، وممتدة في الأسباب والعلل، وراء كينونة الانسان ذاته، ومجال إدراكه، ولهذا لايمكن أن تجيء فكرة بشرية، ولا أن يجيء منهج تاريخي من صنع البشرية يتمثل فيه «الشمول» أبداو

إنما هو تفكير جزئي وتفكير وقتي، ومن جزئيته يقع النقص، ومن وقتيته يقع الاضطراب الذي يحتم التغيير والتبديل المستمر، كما حدث ويحدث في المناهج التاريخية الوضعية باستمرار.

يقول الدكتور ألكسيس كاريل الحائز على جائزة نوبل في الطب مؤكدا هذه الحقيقة: «..فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الانسان ما زال غير كاف وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب»(22).

وهذه هي أزمة المناهج التاريخية الغربية، أزمتها أنها تنظر الى التاريخ البشري بنصف العين أو بعين واحدة، وكل تفسير للتاريخ بدافع واحد هو تفسير ناقص قصير النظر محدود الرؤية.

التفسير الجنسي للسلوك البشري الذي قال به سجموند فرويد، والتفسير المادي الذي يقول أن تاريخ الانسان هو تاريخ البحث عن الطعام والذي قال به ماركس وأنجلس، والتفسير السيكولوجي الجزئي الذي يقول إن رغبة البروز هي الدافع الأصيل في الانسان، سواء في صورة رغبة في التفوق كما أدلى بها «أدلر» أو الشعور بالنقص ومحاولة للتعويض كما أدلى بها «يونج» تلميذا فرويد.

كل هذه التفسيرات ترتكب خطأ فاضحا، هو أخذ عامل واحد، أو دافع واحد من الدوافع الانسانية المتعددة -المحركة للتاريخ والحضارة- والقول بأن هذا الجانب هو التاريخ البشري بالذات. إن القرآن الكريم يرفض التفسير (الواحدي) للتاريخ، التفسير الذي يتشنج على عامل واحد فحسب، يسعى من خلاله لاحتواء الوقائع التاريخية كلها، ويطرد من بنيته النظرية (التاريخية)، سائر العوامل الأخرى المؤثرة في التاريخ، كما فعلت وتفعل الكثير من المذاهب في تفسير التاريخ، الاسلام يختار الطريق الآخر : (الرؤية الشمولية للتاريخ)، إنه يسلط الأضواء على الأسباب والدوافع كافة، تلك التي تلعب دورها، بشكل أو بآخر، في بنية وصيرورة الحدث التاريخي، إنه يقلب الحدث ليشاهده عن كثب من مختلف الزوايا، كما هو في الواقع، لا كما يراد له أن يكون، وهذا أمر طبيعي يتساوق مع ضرورات منهجه الشمولي الذي يرفض الرؤية

الواحدية والتسطيح(23).

إن الاسلام دعوة عالمية : «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا، ولكن أكثر الناس لايعلمون»(24)، «قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا»(25)، وعالميته تمثل نظرة شاملة متكاملة للوجود الانساني منذ بدأ الخلق والى يوم البعث والحساب، وفي ذلك إحاطة تامة برحلة البشرية عبر الزمان والمكان، ولهذا فإن النص القرآني الكريم قد بلغ من سمو الرؤية التاريخية ما يتخطى بعمقه، وبدلالته كل النظريات الحديثة في قراءة المجتمع والتاريخ، لأن هذه النظريات تنطلق -في الغالب الأعم- من محصلة تجربة حضارية تاريخية محددة، فتلغي كل التجارب الأخرى عن مجال المساهمة التاريخية في صياغة القوانين، بينما نجد أن النص القرآني الكريم وفي صياغته للسنن والقوانين التي تحكم حركة التاريخ البشري، يأخذ في عين الاعتبار والحساب كل التجارب البشرية الحضارية بخصوصياتها، كعناصر أساسية ترفد في مسار نهر الحضارة البشرية الكبير.

إن المناهج التاريخية الوضعية تأثرت جميعا باعتبارات نسبية، هي طبيعة عصر المفكر وطبيعة المجتمع الذي عايشه، الى جانب الخلفيات الأيديولوجية والطبقية والتربوية...، الأمر الذي انعكس على نظريات الباحثين سواء في شكل تقبل مطلق لقيم العصر ومعطياته الفكرية، أو رفض لها وتمرد عليها، وهذا الأمر هو أشد ظهورا في مجال التفسير أو التحليل التاريخي، فيبرز المنظور الذاتي الضيق للمحلل للتاريخ المتأثر بقيم العصر ومختلف الانتماءات الفكرية والاجتماعية، وهو ما يتعارض وقضية «الشمول» أو الدراسة الشاملة المستعصية للتاريخ التي يريدها القرآن الكريم.؛وهذا هو الخطأ الذي وقعت فيه مدرسة التفسير المادي للتاريخ، فإن نزعتها التعميمية جعلتها تدرس تاريخ أوروبا ثم تعمم نتائج الدراسة على الأرض كلها، ومن ثم اعتبرت المادية التاريخية أن تاريخ أوروبا هو تاريخ العالم، وأن العامل الاقتصادي والتناقض الطبقي الذي حكم تاريخ أوروبا هو الذي يحكم تاريخ العالم، وأن قانون المراحل الخمس حتمي لأوروبا وحتمي للعالم.

وهو الأمر الذي رفضه وأنكره أرباب الدار نفسها والمستلهمون من مدرستها قبل غيرهم يقول الدكتور محمد عابد الجابري : «... إذن فالسلسلة التي ركبت حلقاتها بناء على التحليل السابق والمؤلفة من أساليب الانتاج الخمسة المعروفة (المشاعية البدائية، النظام العبودي، النظام الإقطاعي، النظام الرأسمالي ثم النظام الاشتراكي) هي سلسلة خاصة بتطور المجتمعات الأوربية، وبناء على ذلك فإن المادية التاريخية كنظرية، خاصة فقط، وصالحة فقط، في المجتمعات الرأسمالية، وهذا ما سبق أن نبه إليه جورج لوكاتش».

ويضيف الجابري نتائجه : «... والسلسلة التي استخلصها ماركس من تاريخ أوربا وانطلاقا من المرحلة الرأسمالية لا تنطبق على التاريخ العربي الاسلامي، لم يعرف هذا التاريخ عصر عبودية كما عرفته اليونان أو الرومان، ولا عصر إقطاع بنفس الشكل الذي عرفته به أوربا، ولا النظام الرأسمالي بنفس الشكل الذي عرفته به أوربا، أما الأسلوب الأسيوي للانتاج فلم يعرفه التاريخ العربي ولا التاريخ الاسلامي... إذن هناك خصوصية، هناك نوع من التطور خاص يجب الكشف عن قوانينه...»(26)

ونحن نقطع بدورنا، ونجزم جزما كاملا أن هذه القوانين الخاصة للتطور التي يدعو الجابري الى الكشف عنها موجودة في نصوص الوحي الإلهي المعصوم، فأزمة المثقفين اليوم ليست أزمة منهج : فالمنهج موجود وهو القرآن الكريم «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا»(27)، ولكن المشكلة مشكلة التعامل والفهم لهذا المنهج القائم، الأمر الذي حمل بعض المسلمين الى استيراد مناهج من حضارات وأيديولوجيات أخرى، ظلنوا فيها الخلاص.

أما سمير أمين -الكاتب الماركسي العربي- فيقرر أن قانون المراحل الخمس في المادية التاريخية لا ينطبق حتى على تاريخ أوروبا نفسها، بل ويتهم ماركس -في تحليله لنمط الانتاج الأسيوي- بالعنصرية حيث يقول : «... وليس التتبع «التقليدي» لهذه النظم العبودية ثم الاقطاعية ثم الرأسمالية خاصا فقط، بل هو وهمي الى حد

كبير إذ أن العبودية لم تظهر كمرحلة حتمية حتى في أوروبا، وأن الاقطاعية ليست إلا شكلا خاصا لنظام انتاج أكثر عموما، أما تضاد التتبع «الأوروبي»... والتتبع.. الأسيوي» (المسمى بنظام الانتاج الأسيوي) فهو تعارض اصطناعي وأيديولوجية عنصرية..»(28).

وكان بودي أن اتي باعترافات أخرى تبين أزمة المنهج عند المثقفين العرب، ولكن ربما يكون فيما أوردته الكفاية والغنية إن شاء الله.

إن الرؤية القرآنية -وخلافا لهذه الرؤى الكليلة عن استيعاب التاريخ البشري- رؤية شمولية تتميز بانفتاحها الكامل على كافة (القوى الفاعلة) في التاريخ، المنظورة وغير المنظورة، العقلية والوجدانية، الروحية والمادية، الطبيعية والغيبية... القوى والدوافع الثابتة والدائمة في كيان الانسان.

د - الواقعيــة :

الخاصيةالرابعة للقانون التاريخي أو للسنة التاريخية حسب مصطلح القرآن الكريم- في المنظور الاسلامي للتاريخ، هي خاصية الواقعية، فهي سنة تاريخية تعامل مع الحقائق الموضوعية ذات الوجود الحقيقي المستيقن، والأثر الواقعي الايجابي، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع «مثاليات» لا مقابل لها في عالم الواقع.

إن الانسان في الرؤية القرآنية للتاريخ، كائن تاريخي (واقعي) ومن ثم فإن المنهج الذي يرسمه له القرآن منهج واقعي كذلك. إنه ليس الانسان كما يريده خيال جامع، أو كما يتمناه حلم سابح مع الرؤى والأشباح، وليس الانسان الذي يصوغه ذهن تجريدي (طوباوي)، كما أنه ليس الانسان الذي يضعه المنطق الوضعي المادي في أسفل سافلين، ويجعله من مخلوقات هذه المادة الصماء، أو من مخلوقات الاقتصاد(29).

إن هذا يقودنا الى حقيقة أساسية وجوهرية، وهو أن المنهج التاريخي القرآني منهج (واقعي) لايتأثر بقيمه ومثالياته الممكنة الوقوع أساسا، في تفسيره للواقع -كما يفعل هيجل وماركس- على سبيل المثال- إنما يتكلم عن الواقع كما هو، دون تبرير أو

تعديل أو تحوير أو تزوير.

إنه -مثلا- يعترف بالدافع الجنسي القوي لدى النوع الانساني، ويعرضه بـ(واقعية واضحة) في سورة يوسف : «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك»(30)، هل ثمة واقعية أوضح من هذه!؟ المراودة وغلق الأبواب، والأنفاس المترددة اللاهبة، ولكن القرآن وهو يفعل ذلك لايحاول أن يهبط بالانسان الى الدرك الحيواني كما تفعل الواقعيات الحديثة، بل يرتفع به الى الاستعلاء عن الدنايا : «قال : معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي، إنه لا يفلح الظالمون»(31).

وفي آية أخرى يقرر القرآن (بواقعية المعهودة) أن الانسان قد ركب في غريزته حب الشهوات من النساء، وحب النسل من البنين، وحب المال، وحب الهكتارات المحروثة، يقول عز وجل : «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المئاب»(32)، فهو في الوقت الذي يدعو فيه الى تحصيل ذلك كله من طرقه المشروعة (فنعم المال الصالح للرجل الصالح) كما يقول المعصوم صلى الله عليه وسلم(33) يأمر باتخاذه وسيلة لا غاية تؤدي الى الأثرة و الطغيان (كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى)(34).

ويعترف القرآن بالتمايز القومي ويعطي لهذا العامل (الواقعي) حجمه الحقيقي رغم نزعة الاسلام العالمية واستعلائه على الكيانات المحدودة المنغلقة على الأرض أو اللون أو العرق : «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين»(35)، «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ...»(36). ويؤكد على ضعف الانسان وتقلبه وعجلته، رغم أنه جاء بنظرية (الخلافة) عن الله والتي كرم بها الانسان ورفعه الى منزلة عالية : «إن الانسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا»(37).

ولكن الاسلام من خلال حركته على أرض الواقع التاريخي، يسعى الى تحقيق أهدافه ومبادئه مع التمسك بنظرته (الواقعية) للأحداث التاريخية، إنه يسمي معركة

حنين هزيمة وفرارا، يقول سبحانه وتعالى : «لقد نصركم الله في مواطن كثيرة، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين»(38). ومهزومي (أحد) الذين قالوا حين أصابهم ما أصابهم : أني هذا!؟ وكيف تجري الأمور معنا هكذا ونحن المسلمون؟! (واقعية القرآن) أجابتهم : بأنهم كانوا السبب وراء الهزيمة: «أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا، قل هو من عند أنفسكم»(39).

وهكذا يعلم القرآن المسلمين من خلال (واقعية) هذه، أن لايبرروا أخطاءهم وينحرفوا في تفسير الأشياء والوقائع، ويعلمهم -في الوقت نفسه- أن يستفيدوا من هذه الرؤية والوقعية «السننية» للتاريخ لصياغة العالم وفقها، لأنهم ليسوا بدعا في الحياة، فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف، والأمور لا تمضي جزافا بدون ضابط، ولكن هناك سننا تتحكم في مسيرتها.

وهكذا فإن هناك فرقا (منهجيا) حاسما بين الرؤى الوضعية وبين الرؤية القرآنية في تفسير التاريخ واستخلاص سننه، في الأولى، تصاغ حقائق التاريخ وفق المذهب (المصنوع) سلفا، فتفسر على الانسجام مع بنائه النظري، وتساق للتدليل عليه وتأكيده بالحق أو بالباطل، فقد كانت -في وقت من الأوقات- المهمة الرسمية لرواد التفسير المادي للتاريخ إدخال تطور كل مجتمع بشري في قانون المراحل الخمس طوعا وقسرا، ولوكان الثمن لي عنق وقائع التاريخ.

وهذا الخطأ يجيء من حقيقة أن وقائع التاريخ سبقت في الزمن تخطيط المذاهب التاريخية، ومن ثم فإن المذاهب جاءت كقضية «بعدية» تسعى الى أن تجبر القبليات على التشكل بها، فمدرسة التفسير المادي -مثلا- لم تملك حين وضعت مفهومها الخاص عن التاريخ سندا علميا لها سوى الملاحظة المحدودة في نطاق تاريخي ضيق (نطاق المجتمع الرأسمالي) الذي رأته المدرسة كافيا وحده الاستكشاف قوانين التاريخ كلها، واليقين العلمي بها.

وهذا ما يعنيه الجابري -وهو محق- عندما يقول في كتابه (من أجل رؤية تقدمية) :

«انطلق ماركس من الحاضر ومنه أخذ يبني الماضي القريب ثم البعيد، لقد انطلق من النتائج الى المقدمات، حلل النظام الرأسمالي .. وهذا قاده الى تحليل النظام السابق له، النظام الاقطاعي، ومن هذا الأخير تأدى الى النظام العبودي ثم أخيرا أضاف المشاعية البدائية...».

وينتهي الى نتيجة أساسية وجوهرية : «أنه إذا كان تحليل ماركس للمجتمع الرأسمالي تحليلا عمليا صحيحا فإن ذلك لايلزم عنه ضرورة صحة تحليله للمراحل التاريخية السابقة للمجتع الرأسمالي حتى في أوروبا نفسها»(40).

إن هذا الكلام يؤكد ما سبق ذكره : وهو أن المذاهب الوضعية في عمليتها الانتقائية تحرص دائما على ألا تأخذ من (الواقع التاريخي) إلا ما ينسجم مع بنائها النظري المقدس، وترفض وتحرف وتزور ما عداه.

أما الموقف الاسلامي من التاريخ، فإنه على العكس من ذلك تماما يتميز بمرونته وبعده عن التوتر والتأزم المذهبي الذي يسعى الى قولبة الوقائع التاريخية لتنسجم مع الهيكل النظري، واستبعاد أو تزييف كل ما لايتوافق وهذا الهيكل، الأمر الذي يوقع التفسير المادي في كثير من الأخطاء والانحرافات.

إن هذا التأزم المذهبي، هذا التحديد الصارم للنظم التي تتبعها الوقائع التاريخية في سيرها، هذا التوتر في التزام هيكل نظري مسبق، تساق أحداث التاريخ للتدليل عليه بالحق والباطل، والذي بلغ أقصى حدته في المادية التاريخية التي رسمها (ماركس وانجلس)، دفع عددا من المفكرين الأروبيين الى اتخاذ موقف معاكس تماما، يمثل رد فعل عنيف إزاء الموقف السالف، بحيث أنهم رفضوا القول بخضوع الحركة التاريخية لأي ناموس أو سنة، وقد بلغ هذا الموقف غير الموضوعي، هو الآخر، أقصى حدته على يد (كارل بوبر) في كتابه (عقم المذهب التاريخي)(41).

هـ الحركية الدينامية

الخاصية الخامسة التاريخية، هي خاصية الحركية والدينامية، لأن القرآن لايؤكد

ثبات السنن التاريخية وديمومتها واطرادها فحسب، ولكنه يحولها في الوقت نفسه الى دافع حركي (دينامي) يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجامعات البشرية، والأمم والحضارات السابقة الى الدمار، وأن تحسن التعامل مستمدة العبرة والسنة من حركة التاريخ نفسه.

آيات كثيرة في القرآن الكريم أكدت وحثت على النظر والتبصر بأحداث التاريخ من أجل أخذ العبرة منها واستنباط السنن التي تحكمها، وإليك نماذج منها : «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين»(42).

«أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها»(43).

«وكم أهلكنا قبلكم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا في البلاد هل من محيص؛ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد»(44).

«أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور»(45).

إن من نتائج هذه السياحة في الأرض أو في دروس التاريخ أن تنشيء عقلا علميا، ووعيا تاريخيا يستمد معارفه وأسلوبه في الفهم من واقع الناس...

«يقول الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخروجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله فآتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار»(46).

فهذه الآية وردت لتبين أسباب سقوط الأمم وانهيار الحضارات ليأخذ المسامون حذرهم، فلا تتسرب إليهم إصابات الأمم السابقة وعللها وأمراضها، وقد جعل الفقهاء هذه الاية دليلا على حجية القياس، أي قيسوا حالكم بحالهم، وهو الذي وقع للمسلمين وكان لابد أن يقع لقول الرسول صلى الله عليه وسلم وما ينطق عن الهوى : «لتتبعن

سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه، قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال : فمن؟»(47)، فلم ينتفع المسلمون بالوحي ولم يعتبروا بالتاريخ، وقد وردت كلمة (عبرة) في عدد من ايات القرآن، أحصيت منها سبعة مواضع : في سورة الحشر، وال عمران ويوسف، والنحل، والمؤمنون، والنور، والنازعات.

وفي أكثر من موضع يؤكد القرآن الكريم أن النظر والبحث الموضوعي والعلمي في تاريخ البشرية، إنما هو جهد إيجابي، لن يكون مردوده إلا على الحاضر والمستقبل، فلا يمكن فرض اتجاه معين على التاريخ، والافتراض سلفا بأن الاقتصاد أو الدين أو السياسة أو ما أشبه، هو الموجه لمسيرة التاريخ، كلا بل من الضروري أن نسير في الأرض حقا أو مجازا وأن ندع التاريخ نفسه يتكلم ليفصح لنا عن حقائق باهرة.

الهوامش

1 – آل عمران 137.
2 – لسان العرب : ج13/ن–هـ/ص: 226-227.
3 – تفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي ج4/ص140.
4 – حول إعادة تشكيل العقل المسلم للدكتور عماد الدين خليل ص51.
5 – مدارج السالكين لابن القيم ج1.
6 – فاطر 43.
7 – الفتح 23.
8 – الأنعام 34.
9 – الرعد 11.
10 – الجن 16.
11 – الكهف 59.
12 –
13 – هود 117.
14 – سورة العلق 5,4,3,2,1.

15 – الانسان ذلك المجهول : تعريب، شفيق فريد ص17.
16 – عن مجلة الفرقان المغربية، ع:7، السنة الثانية ص26.
17 – من أجل رؤية تقدمية للدكتور محمد عابد الجابري ص104-105.
18 – مقدمات في التفسير الموضوعي لمحد باقر الصدر، ص79.
19 – المرجع السابق ص80.
20 – الأعراف : 57.
21 – الروم : 48-49-50.
22 – الانسان ذلك المجهول ص19.
23 – ابن خلدون إسلاميا للدمتور عماد الدين خليل، ص11.
24 – سبأ :28.
25 – الأعراف : 158.
26 – من أجل رؤية تقدمية، ص98-99-100.
27 – المائدة :48.
28 – علاقة التاريخ الرأسمالي بالفكر الأيديولوجي العربي، للدكتور سمير أمين، ص29-30.
29 – أنظر خصائص التصور الاسلامي ومقوماته لسيد قطب ص:163,177.
30 – يوسف : 23.
31 – نفس السورة والآية.
32 – آل عمران : 14.
33 – والحديث صحيح، أنظر الترغيب والترهيب للجافظ المنذري، رقم 4576 بتحقيق محمد محي الدين عبدالحميد.
34 – سورة العلق :7,6.
35 – الروم : 22.
36 – الحجرات : 13.
37 – المعارج : 19-20-21.
38 – التوبة : 25.
39 – آل عمران : 165.
40 – من أجل رؤية تقدمية ص98.
41 – التفسير الاسلامي للتاريخ للدكتور عماد الدين خليل، ص10.
42 – آل عموان : 137.
43 – محمد : 10.
44 – ق : 37,36.

45 – الحج :46.

47 – الحديث متفق عليه، رواه البخاري في صحيحه، عن أبي سعيد الخذري رضي الله عنه، في كتاب الأنبياء، باب ما ذكره عن بني اسرائيل. ورواه مسلم في صحيحه، في كتاب العلم.